

النهر المتعطل ومشروعات المستقبل

النيل نهر متعطل بين أنهار الدنيا التي تماثله والتي هي دونه بمراحل ، ولو كنت حاكما للأنهار لفكرت في أن أرسل إليه بإنذار تشرد كالذى ترسله السلطات للمتعطلين من الأفراد ! لولا أنه نهر معذور في تعطله ، مستعد للعمل في كل لحظة وليكنه لا يجد ما يعمل !

ولقد ظل هذا النهر عشرات الآلاف من السنين أو مئاتها يعمل فيما هيئ له من رى الأرض ، حتى قيل بحق إن "معمر هبة النيل" ولم يقصر في هذا العمل الرئيسى الهام طوال هذه الأجيال ، وكلما طلب إليه الجود فاضت يدا ، وكلما وجه للخير ذهب في كل اتجاه !

الا أن الأنهار لا تقوم بالرى وحده ، فالرى وظيفة واحدة من وظائف الأنهار في الدنيا والنيل أبو الأنهار صالح لأداء عشرات من الوظائف الأخرى هو وشاطئاه الطويلان ، فعلى أن نوجه لهذه الوظائف وألا نتركه متعطلا معرضا لإنذارات التشرد !

وسنذكر من هذه الوظائف الطائفة الرئيسية التي يستطيع أداءها في يسر واتقان :

(١) توليد الكهرباء من مساقط المياه .

(٢) الملاحة النهرية .

(٣) الكورنيش النهري .

(٤) مصايد الأسماك .

وقبل أن نتحدث عن هذه الوظائف وفائدتها لحياة الوطن ونموه ، وأثرها في رقى البلاد ونمائها ، يجب أن نذكر أننا مضطرون للاتجاه إليها اضطرابا بحكم ظروف المستقبل القريب .

إن هناك مشكلة تنظرنا عقب الحرب مباشرة ، ويجب أن نعد لها العدة منذ الآن ، ونحن نعرف أن الدوائر الحكومية المسؤولة تعد هذه العدة فعلا . هذه المشكلة هي مشكلة البطالة لعدد كبير من الأيدي العاملة التي تستغرقها ظروف الحرب الطارئة .

هذه الأيدي متعطل لأن العمل في المعسكرات وسواها من الأعمال المتماقة بالحرب سينتهى ويخلف مئات الألوف بلا عمل ، ثم إن الصناعات الكثيرة التي اتسم نطاقها بسبب الحرب والصناعات الكثيرة التي نشأت تلبية للظروف الوقتية ستتكش عند انتهاء هذه الظروف وتلفظ الكثيرين ممن يعملون فيها . فإذا أضفنا إلى هذا أن الزراعة الآن مزدهرة

للاسباب نفسها ، ولرواج الأعمال الزراعية ، وأن هذا الرواج غير مضمون حينما تعود الأحوال الى ما كانت عليه ، مع علمنا بأن أعمال الزراعة لم تكن تستغرق جميع الأيدي العاملة في الريف ، فإن هذا يشير الى طرف من أطراف المشكلة التي سنواجهها ...

لا بد إذن من التفكير في وسائل للعمل بعد الحرب مباشرة ، والجهات الحكومية المسئولة كما قلت تفكر في المسألة على هذا الأساس ، فكل عملنا إذن في هذا المقال أن نشير الى بعض وسائل العمل الممكنة بتكوين النهر المتعطل من العمل فيعمل معه عشرات الألوف من أبنائه المتعطلين !

والآن فلتحدث عن كل وظيفة من هذه الوظائف الأربع التي اخترناها في صدر هذا المقال :

١ — توليد الكهرباء من مساقط المياه :

هذا مشروع مدروس ، وقد كاد يتقرر الشروع فيه بالنسبة الى خزان أسوان ، وقيل يوماً ما أننا سنستخدم جزءاً من القوة الكهربائية في صنع السماد ... الخ .

ونريد أن نقول : ان بعض البلاد الأوروبية والأمريكية تستخدم كل مساقط المياه القليلة الأهمية وتنشرها الانارة الكهربائية في القرى ، والطاقة الكهربائية في المصانع الصغيرة حولها ، ونهر النيل ذو الرياحات والترع والتنوات والمصارف ، غني بهذه المساقط التي يمكن استخدامها شيئاً فشيئاً ، فتشيع في حياة البلاد الاقتصادية والعمرانية روحاً جديدة ، وروحاً جديداً .

وقد لا يكون لمثل هذه المشروعات أثر مباشر في مواجهة مشكلة البطالة التي نتحدثنا عنها ، ولكن لها أثر لا شك في حالة البلاد الاقتصادية والعمرانية ، وفي نشاط الصناعة وتغلغلها ، ولهذا كله أثره المحتوم في حالة العمل واستغلال النشاط .

وقد يقع في كثير من الأحيان أن يكون استخدام قوى الطبيعة سبباً في تعطل القوى البشرية العاملة ، ولكن هذا لا يلبث إلا ريثما تتغير ظروف العمل وتتغير ، وتفتح أوجه جديدة للعمل في المحيط الجديد والظروف الجديدة .

وحسبنا من مثل هذه المشروعات أنها تيسر القوى الدافعة لعشرات المصانع الكبيرة ومئات من المصانع الصغيرة ، وأن نستطيع بواسطتها إنارة المدن والقرى وكهربة بعض الخطوط الحديدية ... الى آخر ما ينتفع فيه بالقوة الكهربائية ... وما ينتج ذلك من أثر حاسم في مدنية البلاد واقتصادها واجتماعها وهو ما يمكن التعبير عنه عند تمامه بالانقلاب .

٢ — الملاحة النهرية :

عرف النيل منذ مئات الأجيال تلك المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة ، ولكنه لم يعرف إلا قليلا كيف يكون طريقا للملاحة النهرية البخارية كما يعرفها نهر «الفولجا» مثلا . وفيما عدا شركات أجنبية صغيرة للملاحة النهرية تسير بضع زوارق وجرارات ، بقي النيل متعطلا لا يحمل إلا سفن الشراع .

والذين تتبعوا أخبار الحرب الروسية أيام وقائع "ستالينجراد" عرفوا المهمة العظمى التي اضطلع بها نهر "الفولجا" في النقل الحربى والمدنى في هذه الظروف الحرجة ، والخدمة التي أداها للوطن الروسى في أشد اللحظات .

أفيعجز النيل العظيم — أبو الأنهار — عن القيام لمصر بمثل هذا الواجب المحتوم ، وهو الذى لم يعجز عن واجب مصر منذ مئات الآلاف من السنين ؟

والملاحة النهرية تستطيع أن تصنع لمصر الشيء الكثير في اقتصادياتها جميعا ، فالسكك الحديدية قليلة في مصر نسبيا ، أما الطرق البرية فسيئة جداً (وستحدث عنها في النقطة التالية) فيجب إذن أن نعتمد اعتمادا أساسيا على الملاحة النهرية في نقل المحصولات والآلات ، وفي نقل الركاب إلى داخلية البلاد ، إذ أن محطات السكة الحديدية معظمها في المدن التي تبعد كثيرا أو قليلا عن قلب البلاد الريفية .

وهذا النهر المنساب بين القرى والمدائن يستطيع أن يريخ الآلاف من أبنائه فيحملهم إلى قراهم آمنين مطمئنين ، إذا انسابت فيه المراكب البخارية من شتى الأحجام والأنواع . فما الذى نحتاج إليه لتنفيذ مثل هذا المشروع ؟

شركات مصرية تنشئ موانئ نهرية على طول شواطئ النيل المديدة ، وتشتري السفن البخارية ، وتتولى عمليات النقل التي لا تنهض بها السكك الحديدية .

وسيكون لهذا المشروع أثر في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية لا شك فيه . فهو أولا سيوجد أسواقا محلية قريبة للمحاصيل الزراعية المختلفة ، ويوفر على الزراع والتجار ما يمانونه من المشاق في حمل المحصولات إلى محطات السكك الحديدية وشحنها ، لأن المحطات النهرية ستكون أقرب والشحن فيها أيسر . وهو ثانيا سيستخدم عددا ضخما من الأيدي العاملة في الموانئ والسفن وأعمال الشحن والنقل المختلفة حيث يعيش هؤلاء العمال في جو ريفى تقريبا فلا يتعرضون لما يتعرض له عمال المدن من الآفات الصحية والخلقية . وهو ثالثا سيخلق في البلاد جالا لاعهد لها به ، فالتنقلة في النيل الجليل والرسو على موانئه المتناثرة في جوف البلاد سيكون متعة يحرق عليها طلاب التزهة الذين لا يجدون مثل هذه السفرات الجميلة .

والزخات الرائعة التي يروى نبأها رواد السين في فرنسا والفولجا في روسيا والرين في ألمانيا لا يتقصّر النيل الخالد الرائع في تحقيقها للمصريين ، الذين يسمعون هذه الأنباء فيخيلونها في عالم السماء وهي منهم قريبة ، والنيل الطيع يحققها لمن يريد .

إن الذين يعيبون على الفن المصري الحديث أنه لم يخلد النيل العظيم ، لا يحسبون حساب الواقع ، وهو أن النيل غريب عن سكان وادي النيل ، لا يكادون يرونه إلا لحظات عابرة ، وأنهم لا يستمتعون من جماله وزخاته بالقيل ولا الكثير .

فإذا تم مثل هذا المشروع الذي ندعو إليه ، وقامت الموانئ النهرية الجميلة على شاطئيه ونحرت فيه الزوارق تشق عبابه وتفساب بين الوادي المخضر الجميل ، فمندئذ يعرف الفنانون جمال النيل ، وتسجله أنانيهم وقصائدهم ولوحاتهم أجمل تسجيل .

٣ — الكورنيش النهرى :

وكورنيش النيل . . . إنه حلم من الأحلام الشاعرية الجميلة ، ولكنه حلم اقتصادى كذلك ، من جميع الوجوه . فحالة الطرق في مصر متأخرة حتى عن بعض البلاد العربية كفلسطين في الشرق ومراكش في الغرب ، وقد أنشئت أخيراً بضع طرق اقتضتها ظروف الحرب فكانت حسنة من حسناتها ، ولكننا لانزال في حاجة ماسة إلى الإسراع في استكمال المواصلات البرية ، وكورنيش النيل يؤدي في وقت واحد جملة أغراض هامة للبلاد منها :

(أولاً) إيجاد طريقتين رئيسيتين يشقان البلاد من أقصاها إلى أقصاها ويتصلان بالطرق المقاطعة لها في الداخل ، وترتبط البلاد بشبكة من الطرق البرية لها أثرها في الانتقال والنقل وحفظ الأمن في البلاد وارتباط مدنها وقراها على الشاطئين . وفي الداخل وهو ما ينقصنا الآن ، وهو لازم لحياة البلاد الاقتصادية والعمرانية ومكمل لوظيفة النقل النهرى السابقة .

(ثانياً) استخدام عدد كبير من الأيدي العاملة في شق هذه الطرق الرئيسية ، وهو عمل ضرورى لمواجهة مشكلة البطالة بعد الحرب مباشرة . ومثل هذا المشروع يعد مشروعا اقتصاديا بما يسببه للحركة التجارية والعمرانية من نشاط ، فإذا أدى أيضا إلى مواجهة مشكلة البطالة كان ذلك من حسناته الإضافية .

(ثالثاً) كشف وجه النيل الجميل على الشاطئين فتقوم عليهما سلسلة من العمارات والفيلات الجميلة ، تجعل حافته جديرتين بالنهر الخالد ، وتجل الريف الكئيب ، وترد إليه كثيرا من هجره لقبه وكأنته ، كما تجعله مرادا للرياضة والزخة لسكان المدن القريبة ، الذين يستطيعون السفر إذ ذاك بالسيارات والسفن البخارية على السواء .

وإنه ليبدو حلما شاعريا جميلا ذلك "الكورنيش" المتلوى على الشاطئ الخالد ، وهنا وهناك تناثرت الجواسق والقصور ، وتناثرت كذلك الموانئ النهرية الصغيرة ترصع الشاطئ المتلوى المنساب .

إن الريف المصرى ريف مهمل كئيب ، لأن شرايين الحياة لا تتصل به لافى البر ولا فى النهر ، فإذا تهيأ لهذه الشرايين أن تتصل به أمدته بالحياة وأشعرته الوجود وأكسبته النضارة ووسمته بالجمال .

إنه حلم ! فتى تتحقق الأحلام ؟

٤ — مصايد الأسماك :

ومصر بلاد يحدها بحران ويشقها نهر كبير ، ومع هذا لا تجد كمائتها من السمك . فتبلغ أسعاره فيها حدا مرتفعا يعزى على الاوساط من الناس ، بله الفقراء .

والنيل وحده كان كافيا لإمدادها بغذاء من السمك يرفع نسبة التغذية فيها درجات والنيل غير ضمين ، ولكن أهله خائبون !

وككل شئ ، فى هذا البلد العجيب كانت معظم مصايد الأسماك فى يد جماعة من الأجانب معظمهم من الطليان ، فلما قضت ظروف الحرب بإبعادهم تعطلت المصايد ونقص المستخرج من السمك إلى حد كبير ، وحدثت هذه الأزمة التى نراها الآن فى لحوم السمك ، وارتفعت أثمانها هذا الارتفاع .

ومصايد الأسماك مشروعات استغلالية مربحة ، فسيلا إذن إلى الربح هو تنظيم هذه المصايد بتأليف شركات مصرية كثيرة للاستغلال على شاطئ البحرين وفى النيل العظيم . وهذه الشركات تستطيع أن تؤدى لنفسها ولمصر خدمات عظيمة . تستطيع أن تشرح وأن تستخدم مئات بل أوفى من الأيدي العاملة فى شتى صناعات الصيد المباشرة وغير المباشرة ، وأن تكفل للسكان موردا من الغذاء الجيد على مدار العام .

ولا يكلفنا هذا إلا أن نفتح أعيننا ، وأن نولى وجوهنا وجهة الكسب الحر المبتكر ، كما يصنع الأجانب الكثيرون تحت سمعنا وبصرنا فى كل يوم بينما أغنياؤنا منصرفون إلى شراء الأرض بأضعاف ما تستحقه حسب نسبة إيرادها ، وشباننا منصرفون إلى الوظائف الحكومية حتى أعمال اليومية ، والأجانب وحدهم يغزون موارد الرزق الغزيرة بلا منافسة من أهل البلاد .

تلك بعض مشروعات المستقبل ، فى دائرة النهر المتعطل ، النهر الذى لا نظيره بين أنهار العالم فى مزاياه ، وهو معطل عن العمل حتى ليستحق إنذار تشرد ، لولا أنه معذور يطلب العمل فلا يلقاه ! ولو أجيب الملا' البلاد خيرا وصحة وجمالا ، ولما قبح حكما فى مجراه مكثفيا بعناية الرى التى ظال يقوم بها عشرات الأجيال فى رتبة واطراد ، أحسبه سُم منهما وول . وآه لو ينطق النيل ، إذن لجهر بالسامة والملا' .